الفصل السابع

حاضنة الوجع

تجلي بوادر الصحوة وارتفاع نداءاتها لأجل الخير، لا بد أن يلحق بها كيان الشر ليخمد شأفة كل ما من شأنه أن يعترض طريقه ويضاد تفكيره، فيتحرك ليحصرها ويئدها قبل أن تكبر وتستفحل وتتعاظم عليه.

لم يستيقظ عبد الكريم من غيبوبته إلا في المستشفى، حيث ألفى نفسه راقداً على سرير في غرفة خاصة بها، تطلع حوله لم يجد أحداً، نصف جسده العلوي كان عارياً إلا من غطاء دثره وضمادة غطت جنبه الأيسر، أحس بألم إصابته تأوه وهو يستعيد تلك اللحظة التي لم يعِيها لفرط سرعتها.

مع كل ما اضطرب حوله في ثوانٍ، رأى دماءه تتدفق بغزارة من إصابته، وجسده يتهاوى نحو الأرض، لم يعرف سبباً لانهياره:

أكان النزف أم أنه إعياء يومه الطويل؟

وحين وقع، لمح بعينين غائمتين ملثمين على دراجة نارية، الدراج الذي يقود المركبة، ورفيقه الذي يجلس خلفه ويحمل بيمناه مسدساً، لم يضطربا أو يخافا من المارة القلائل الموجودين بالمكان؛ بل تجاسرا على فعلتهما أمام الجميع، كيف لا وهما من رجال العصبة، ثم انطلقا بدراجتهما ومضيا في طريقهما، ورأى الناس تهب نحوه لمساعدته قبل أن يتلاشى وعيه تماماً بعدها، يبدو بأنهم نقلوه للمستشفى.

حمد الله أن أنجاه، ثم وجد سترته المدماه على كرسي قريب عن يسراه، مد يده إليها ليتناولها ولم يستطع، جلس معتدلا يعالج الألم وعاد يمد يده حتى وصل إليها، ثم حاول ارتداءها حين دخل سهيل عليه، ابتسم في فرح حين رآه مستيقظاً، واقترب منه وساعده، ثم جعله يستلقي مجددا وهو يقول:

-الحمد لله على سلامتك يا سيدي.

-شكراً يا سهيل، لِمَ أتيت إلى هنا؟ أين المرأة وأطفالها؟ هل ساعدتهم؟

ابتسم في إشفاق وهو يقول:

-نعم، لقد أتممتُ ما أمرتني به على أكمل وجه، كل سكان الحي هناك والمارة هبوا لأجلك، وظل اثنان منهما إلى جانبك إلى أن انتهيت من عملي، وقدمتُ إليك على الفور، أعلم بأنه لن يهدأ لك بالٌ مهما كانت حالتك.

-بارك الله فيك، أشكرك.

-لم أقم إلا بواجبي يا سيدي، والحمد لله أن الرصاصة لم تخترق جسدك بل جرحتك؛ لكنه كان غائرا قليلاً، والطبيب طمأنني أنه في إمكانك المغادرة بعد أن تستيقظ.

-الحمد لله.

قال سهيل في ضيق:

-ماذا يقصدون من تصرفهم ذاك، أهذا تهديد أم خطأ تصويب؟

أجابه عبد الكريم في حزم محتملاً ألمه:

-بل تهديد، المطلق كان يحيى، عرفته مباشرة من عينيه رغم أنه كان ملثماً، كان قريباً مني، لم يكن من العسير عليه قتلي.

-ربما لم يقتلك لأن بينك وبين أهله معرفة سابقة.

-ربما؛ لكن من اغتال رجال المدينة وأبناءها من قبل هل سيتورع عن قتل أهله الآن بعد أن صار كل شيء في أيديهم؟ وأعتقد بأن هذا رد فقط على منعي لرفاقه من السرقة، إنه يحاول إخافتي.

-لا حول ولا قوة إلا بالله، ماذا ستفعل الآن؟

أسبل جفنيه وقال:

-لا شيء، سنمضي في عملنا، هل تظن بأن أحدا هنا سينصفنا إن ظُلِمنا؟ لنمضي، ولندعو الله أن ينصرنا.

في تلك اللحظة، اقتحم طارق الغرفة وملامح القلق على وجهه وأنفاسه تتصاعد بسبب خوفه وهرولته، ابتسم له عبد الكريم حين اقترب وهو يقول في قلق:

-كيف هي إصابتك؟

رد مطمئنا:

-أنا بخير، لا تقلق جرح سطحي فقط.

بدا الاطمئنان عليه، ثم قال في عصبية:

-الحمد لله أنك بخير، أرأيت يا أبي؟ أرأيت نتيجة العمل لأجل المدينة؟ ليتك تتوقف عن...

قاطعه في حزم:

-لن أتوقف، ولم أرتكب أي خطأ يا طارق، وإن كنا سنخاف فلن نتقدم شبرا واحدا، ما أفعله لأجل الجميع لا لأجل نفسي.

رد عليه في نبرة حملت جِداً وألم:

-إنهم لم يقدموا على ما أقدموا عليه إلا لأنك اعترضت دربهم ومنعتهم من السرقة وفعل ما يريدون. أبي، نحن من نخاف عليك وليس غيرنا، لذا أرجوك توقف، أمي قلقة عليك.

-هدء من روعك الآن يا بني، أنا بخير.

-هداك الله يا أبي، يجب أن تتوقف.

-قلت لك لن أفعل، دعنا نعد للبيت.

-ولكنك...

-لقد أخبر الطبيب سهيل أنه بإمكاني المغادرة، لذا أرجو أن تتابع الإجراءات اللازمة لأجل ذلك.

بدا الارتياح على وجه طارق وهز رأسه، وهو يقول:

-حسناً، سأفعل الآن.

وغادر الغرفة، بينما قال سهيل:

-سأتولى أمور المؤسسة ومهامك لحين عودتك، وسأوصل سيارتك للبيت، يمكنك أن ترتاح وتطمئن.

-شكرا يا سهيل.

-العفو سيدي، هذا واجبي نحوك فلا تشكرني.

اكتفى بابتسامة له، وتابعه ببصره حتى غادر.

لثوانٍ سكن العتمة، لقد انطفئ المصباح بغرفته، ثم أنير ليدرك بأن الكهرباء قد قُطعت عن المدينة، أما بالمستشفى ولا سيما المستشفيات الخاصة فلا بد أن تبذل إدارتها جهدها لاستمرار الكهرباء بها وتوفيره وقودها لأجل مرضاها وعملها، فهي مكان حساس، نظر ناحية النافذة الزجاجية فوجد الظلام يطل من الخارج، نهض ببطء وفتحها، رآه يغطي الشوارع والبيوت كلها، كان بغرفة في الدور الرابع أتاح له فرصة رؤية المدينة وغرقها في بحر الظلام وجبروت الظلم، وبعد لحظات ظهرت بعض الإضاءات الشحيحة المتفرق وهجها الخافت هنا وهناك، وصدحت بعض المولدات بأصواتها لتقطع سكون الليل، تمتم في حزن:

-إلى متى سأظل أراكِ ترتدين ثياب الحداد حتى في بهجة الربيع؟ هل هذا الربيع فعلاً أم أنه فصل خامس لا ندري عن كنهه شيء؟ متى ينجلي حزنك يا مدينتي؟

أقبل فصل الربيع فعلاً، ليس بعبق زهور متفتحة، ولا بنسمات بحر ولا بسحر طبيعة، لم تفتح المكلا ذراعيها وكل حواسها لتستقبل بشاشة الطبيعة؛ بل أصبحت حاضنة الوجع، ما كانت فيه من حصار وخناق على أبسط متطلبات الحياة لم يشفع لها في أن تُمنح السعادة ولو قليلاً، كان عليها أن تشاطر من جاورها أوجاعهم أيضاً.

منذ إطلالة أبريل إلى مدة تقترب من الأسبوعين، صارت المدينة قِبلة الكثير من النازحين الفارين من ويلات الحرب في عدن، إليها كان الملجأ من قذائف الظلم وهجمات المتمردين الطغاة ، توافدوا إليها مهما كان حالهم، من امتلك مالاً، ومن لم يمتلك إلا ما على جسده، لم يفكروا في شيء إلا النجاة من براثن الحرب وبطشها.

لحظتها لم تنحصر آلامهم في صدورهم وحدهم؛ بل امتدت إلى صدور أهل المدينة ليبادروا في مساعدتهم، ففُتحت بعض المباني والمدارس التي أوقفت عملها منذ الغزو، وتحولت إلى مراكز إيواء لاحتوائهم حين ازدحمت المدينة بهم ولم يجد معظمهم مساكن غيرها، وهبت مؤسسات وجمعيات لأجلهم بكل ما يستطيعون رغم ضعف الإمكانيات بالمدينة، واستنفرت المستشفيات لاستقبال جرحى الحرب والاستعداد بكل الإمكانيات المتاحة.

وصلت الأخبار لسمع عبد الكريم عن طريق سهيل الذي صار مسؤولا بدلاً عنه ويتابع معه كل ما يحدث، حيث يزوره كل يوم ليطمئن عليه ويطلعه على أمور المؤسسة، فلم يفارق الألم قلبه كما بدأ يفارق جسده، ظلت مبادرته في منح الأولوية في شغل شقق عمائره لهم، قال سهيل:

-لقد شُغلت كل الشقق يا سيدي، وأنا أتابع أمور المستأجرين ،وأتفقد إن كانت هنالك مشكلة قد تواجههم في أماكن سكنهم.

رد عليه بألم:

-أحسنت يا سهيل، تفقدهم أيضاً إن كانوا يحتاجون لشيء، لنساهم ولو بالقليل في تلبية احتياجاتهم.

رد عليه في حزم:

-أنت تبذر كثيراً يا سيدي، يكفي منحك إقامتهم المؤقتة لشهر دون أجرة وتعاونك لأجل إيوائهم، المؤسسة ستخسر الكثير وستنهار، ثم أن حملات الإغاثة تتولى المؤنة لهم.

سأل دهشاً:

-حملات إغاثة؟!

-نعم، المؤسسات والجمعيات الخيرية سعت جاهدة لتوفير المؤنة اللازمة لهم، ونظم الكثير من أبناء المدينة ذلك، بل أنهم أرسلوا بواخر لعدن عبر ميناء المدينة بعد أن وصلت شحنة (المازوت) اللازمة لتشغيل الكهرباء بالمحافظة، الكل يسعى لأجل أهلنا في عدن، ليس من وصلوا إلينا فقط بل أيضا لأجل من كانوا لا يزالون تحت وطأة الحصار، لذا طب نفساً يا سيدي، وقدّم المساعدة، ولكن دون أن تلقي بمؤسستك إلى التهلكة.

تنفس في ارتياح، ثم قال في ألم متصل:

-الحمد لله، أحياناً ... يصيبني العجز عن تغيير هذا الواقع المؤسف إلى بذل كل شيء دون التفكير في النتائج المترتبة عليّ، ولولاك لكنتُ تبعت عواطفي فعلا وغرقت المؤسسة في دوامة ديون لن تنتهي أبداً مع تردي الوضع، إني أتألم يا سهيل ولا أدري متى سيُزاح هذا الألم عن صدري، أملك المال ولا أستطيع مداواته بشيء.

هز سهيل رأسه في أسى وهو يقول:

-الكل يتألم، والكل عاجز عن مداواته، لكننا نحاول تدارك ما يمكن تداركه، وتخفيف الأوجاع ولو قليلاً، بالأمس مررت بأحد مراكز الإغاثة، رأيت الحزن يرتسم على وجوه الناس وهم ينتظرون دورهم ليحصلوا على احتياجاتهم، تخيل أن تكون في أحضان وطنك وتطلب حاجاتك الضرورية وتنتظر دورك لأجلها، تخيل أن تحصل على هوية غير هويتك الحقيقية؟

-إني لا أفهمك، ماذا تعني بهوية غير هويتك؟

-بسبب عدد النازحين الكثير ورغبة مراكز الإغاثة في تنظيم عمليات التوزيع بشكل عادل ومنظم، منح كل رب أسرة بطاقة خاصة تحمل إلى جانب الاسم لقب (نازح).

ابتلع عبد الكريم غصة، وقال وهو يخفض رأسه:

-هذا الإجراء ضروري يا سهيل، إنها تشبه (بطاقات التموين) في الماضي، بل أن بعضها لا يزال موجودا قبل احتلال العصبة للمدينة.

-نعم، لكن أن تحمل هوية (نازح) الاسم بحد ذاته أصابني بالوجع، رأيت عدداً من الرجال والنساء يغالبون الدمع وهم ينظرون لبطاقاتهم، هربتُ من المكان حين أحسست بأن دموعي ستنهمر، خشيت أن تزيدهم والآلام البادية على وجهي ألماً ويدركوا إشفاقي عليهم.

-ولهذا أرسل مبلغاً لمراكز الإغاثة من المؤسسة لأجلهم.

اتسعت عينا سهيل في دهشة وهو يقول:

بطاقة نازح

-سيدي، ماذا قلتُ لك قبل لحظات؟

ابتسم عبد الكريم وهو يقول:

-لأجل ما ذكرت لا بد أن تفعل ذلك، مبلغ بسيط تدبره حسب ما تراه من ميزانية المؤسسة، ومن عندك أيضاً إلى أن تتكشف هذه المأساة عنهم وعنا، إني أترك الأمر في يدك لتداوي بها آلام قلبك.

ابتسم سهيل وهز رأسه مؤيداً وهو يقول:

-صدقت سيدي، ما من سبيل لتخفيف الوجع إلا بالكفاح، لكن باعتدال فنحن لا نعلم إلى متى سيستمر.

اتسعت ابتسامة عبد الكريم وغادره سهيل لتنفيذ الأمر عائداً إلى المؤسسة.

في الجهة الأخرى، كلما تجول طارق مع رفاقه في أحياء المكلا ولا يجدها إلا مكتظة بغير سكانها، وبنقاط التفتيش الكثيرة، والوجوه الملثمة المظلمة، يتميز غيظاً، وحين مر بسيارته مع قرب كورنيش المدينة بحي السلام في صباح ذلك اليوم، قال لهم:

-إلى متى سيستمر كل هذا؟ إلى متى سنتحمل غرباء ينهبون أموالنا تارة، أو غرباء يتقاسمون أرزاقنا تارة أخرى؟

رد محمود في ضيق:

-لا أدري يا صديقي.

أضاف ناصر:

-هل من حل؟ لا وقود ولا غذاء ولا حتى رواتب ستكفي الجميع هنا، إنهم ينازعوننا في كل شيء.

قال وليد في ضيق:

-أهالينا متعاطفون معهم لدرجة لا توصف، أبي لا يستلم راتبه إلا وينفقه في نفس اليوم ليمنح نصفه لحملات الإغاثة، كنت أريد أن أشتري هاتفاً جديداً لي.

قال ناصر:

-ووالدي مثل والدك يا وليد، أصبحت حاجات البيت محدودة جداً.

قال صبري مشاركاً رفاقه:

-ألا تكفينا هم الحراسات المجانية حتى نقتر على أنفسنا؟ لم نعد نستطيع فعل ما نريد وقتما نريد، والدي يقول لي:

هذا واجبنا نحو المدينة، ولابد أن يتبرع من بقالته التي يعمل فيها لأجلهم من حين لآخر.

قال محمود:

-والدي أيضاً الذي يعمل بشركة في الوادي يطلب من والدتي أن تمنح جزء مما يرسله لنا لأجلهم.

زفر طارق ثم قال:

-آخ منهم، أعتقد بأن أبي هو أسوأ شخص بين آبائكم، وهو في أمس الحاجة للمال والراحة أيضاً بسبب ما تعرض له، الكهرباء تنقطع طوال النهار؛ لكنه لا يوفر وقوداً لأجل تشغيلها بالمنزل ولا حتى يأمرني بذلك، طلبت منه ذات مرة أن يفعل؛ لكنه رفض، وتعلل في عدم توفره بالمحطات، بل بيعه في السوق السوداء بأسعار باهظة، إنه مخطئ، مهما كان لابد أن يسعى للحصول عليه، أحرقتني حرارة الجو بسببه، وهو يتحملها رغم أنه بحاجة للنوم والراحة ؛ إنه لا يرتاح له بال إلا إذا اطمئن على عمله بالمؤسسة، والسؤال الذي يسأله سهيل دائماً:

هل تفقدت المستأجرين؟ كيف تسير أمورهم؟ ... ماذا نفعل؟

لقد مضى شهر ونصف على هذا الوضع ولم يتغير الحال ولم يغير من حاله أيضاً.

قال محمود في يأس:

-سأختنق.

ما أن أتم كلمته حتى سمع الخمسة جلبة قربهم على يسار الشارع، فأسرعوا ينظرون ناحيته، كان جمع خفير من الناس متجمهرة قرب مبنى البريد، فقال صبري:

-يبدو أن هناك مشاجرة.

صفَّر محمود في حماس ثم قال:

-مشاجرة قرب البريد!! دعونا نستطلع الأمر.

تحمس بقية رفاقه لحماسته، وأوقف طارق سيارته على جانب الطريق ثم خرجوا ليقتربوا من المكان، فرأوا رجالاً من مختلف الأعمار بين واقف وجالسٍ على الشارع المقابل من المبنى، لفحتهم الشمس بأشعتها فوقوا رؤوسهم بقطع من كرتون مهملة عثروا عليها بالأرض، بينما اكتفى بعضهم بإسدال عمامته على عينيه قليلا لتصير كمظلة أو ارتدى ونظارته الشمسية، كانوا من أهل المدينة ومن النازحين متجمهرين قرب باب المبنى المفتوح، والجميع في انتظار دوره بالخارج في طابورين أهمل آخرهما ليتفرق المنتظرون على الشارع بعد أن صار المكان في الداخل لا يتسع لهم، ملامح الضيق والانزعاج كانت ترتسم على الوجوه، أطلقوا عبارات التأفف من طول الانتظار، بينما تبادل البعض الآخر أحاديث هستيرية وكأن الشمس أفقدتهم صوابهم.

لفت انتباه الخمسة، رجل من النازحين يمشي قرب أحد الطوابير وهو يقول لآخر من المدينة يقف في الصف وبلهجة غاضبة:

-ماذا تقول؟

رد الآخر في حزم وغضب:

-ابتعد منها، لقد أخبروك أن لا راتب لكم الآن، فلم تقف حجر عثرة في دربنا، ابتعد.

زمجر الرجل وهو يقول:

-لن أبتعد، هؤلاء يخادعوننا، لأيام وهم يماطلوننا، إنهم يسرقون حقوقنا بسبب نزوحنا.

-لا يوجد لصوص هنا، ولو كنا كذلك لما تحملناكم أو ساعدناكم، ألم تشعر للحظة بأنكم حملٌ ثقيل علينا؟ ألا ترى حال المدينة نفسها؟ أم أنك ترى نفسك وحدها؟

اتقدت عيناه غضبا وأجاب:

-وهل تظن بأننا نود مغادرة بيوتنا والمجيء إلى هنا؟

-إذا لم يعجبك المكان فاختر لك مكاناً غيره، يكفينا أنكم تزاحمونا حتى في لقمة عيشنا وأمام البقالات، انقلع من هنا أيها المتغطرس.

-ماذا؟؟؟

لم يمهله الرجل لحظة حتى كور قبضته وألقى بها في وجهه دون تردد ليسقطه أرضا، فقام رجل من المدينة بلكم الرجل المعتدي وقفز معه الأول، فارتفعت الأصوات واختل الطابوران، وبدأت المشاجرة والرجال المحيطين بهما يحاولون تهدئة الوضع؛ لكن المعركة ما لبثت أن تحولت بعد دقيقة إلى فريقي صراع مكونٍ من ستة رجال وليس بين الرجلين وحدهما وانتقلت عدواهما بين المتواجدين، فتكون فريق ثالث محايد من أهل المدينة يحاول السيطرة على غضب الجميع.

صفَّر محمود وهو يتابع مع رفاقه في اهتمام، ولحق به البقية وكأنهم يرغبون في استمرار المعركة طويلاً، لكن رجال الفريق الثالث تمكنوا من إنهاء المشاجرة بعد مشقة وتفريق الجميع وإبعادهم عن المكان.

غادر الرفاق الخمسة المكان، ثم قال محمود في سرور:

-إنها البداية.

بادله طارق السرور وهو يقول:

-بداية النهاية، لينقلعوا.

قال صبري في ارتياح:

-الحمد لله أننا لسنا الوحيدين الذين يشعرون بالسأم منهم.

-وهذا الأمر جيد جدا.

قال ناصر:

-ليتنا نستطيع فعل شيء حتى يتذمروا منا ويرحلوا.

قال وليد:

-وما الداعي لذلك، لا تتعجل، الأيام كفيلة بأن تجعلهم يدركوا بأنهم مجرد طفيليون على مدينتنا مهما كان كرم آبائنا عليهم.

رغم أوجاع القلوب وأحزانها إلا أن الصمود كان وساما لدى البعض، والبعض الآخر كان في سخط وغضب يتعاظم مع الأيام، الحال لم يتغير، القذائف تدوي في عدن ليرتد أصداؤها في المُكلا.

عائشة التي كانت ترى حالة زوجها لم يكن موقفها ببعيد عن موقف ابنها، تتذمر وتغضب من تصرفاته أحياناً، وأحيانا تشفق عليه، إذ أنه آثر النهوض في (نمط المقاومة) ذاك على الراحة رغم إصابته، يستشعر في وجدانه أنه لابد أن يستمر مهما كان وضعه.

وخلال هذه الفترة، تحسنت إصابته، قرر العودة للعمل في المؤسسة، أخبرها برغبته في ذلك الصباح، فقالت في حزم:

-لا تزال متعباً.

رد عليها مطمئناً:

-بل أنا بخير يا عائشة، لقد طمأنني الطبيب يوم أمس، وقال أن في إمكاني مزاولة أعمالي.

-لكني لا أراك كذلك، أنت بالكاد ترتاح حتى وأنت على فراشك، ولا تأكل جيداً، لا يهمك إلا عملك.

-هذه مسؤوليتي.

أخفضت رأسها وقالت:

-ونحن، ألسنا مسؤوليتك يا عبد الكريم؟

دُهش لقولها، فاقترب منها وأمسك بيديها وقال في قلق:

-وهل قصرتُ في حقكم؟ إن كنتُ فعلت فقولي لي.

-نعم فعلت، أنت تنفق مالك على غيرنا وتبذره لأجلهم، أليس من الأولى أن تهتم بشؤون أسرتك؟

رفع حاجباه في دهشة وهو يقول:

-أهذا كلُ شيء؟ نحن في خير وبخير يا عائشة، إني أمنحكم ما تريدون ولم أبخل عليكم بشيء، ثم ألا تريدنا أن نتصدق من مما لدينا لأجل أهلنا؟ هناك ناس أسوء حالٍ منا ومنحوا من أموالهم لمراكز الإغاثة، عائشة حالنا أفضل من غيرنا فلا تشتكي من هذا واحمدي الله على النعمة التي نحن بها.

حاولت بكلماتها تلك أن تردعه وأدركت أن كلمة أخرى لن تنجح في تغير موقفه مما يفعل، فتمتمت بحمد الله، ثم اجترعت غصة خوف بصعوبة، وهي تقول مجدداً في لهجة حاولت أن تجعلها حادة وحازمة:

-أنت تعمل لأجل المدينة دائماً دون أن تراعي خوفنا وقلقنا عليك، من لنا غيرك؟ ماذا لو حدث لك مكروه أسوء من...

انفجر سد الخوف ليسمح لدموعها بأن تسيل على خديها مدراراً، مسح على رأسها وهو يقول مواسياً:

-إلى متى هذا الخوف يا عائشة؟ منذ أن أصبتُ أنتِ على هذه الحال، اهدئي، لقد أصبحت بخيرٍ الآن ولن أذهب إلا لعملي.

رفعت رأسها ونظرت في عينيه وهي تقول في حزم رغم دموعها:

-أنت تذهب لعملك، ولتعترض أولئك الأشرار أيضاً.

هز رأسه وهو يقول:

-لن أعترض أحداً، فأمر التفاوض معهم من اختصاص الهيئة الآن، أزيلي خوفك.

مسحت دموعها ثم قالت:

-هل هذا يعني بأنك لن تعترض العصبة مرة أخرى؟

-لا، لن أفعل، هناك أعمال كثيرة بالمؤسسة ولن ألتفت إليهم.

-عدني بذلك.

-أعدك عزيزتي، لن أفعل أي شيء، سأقوم بعملي فقط.

-رغم أني لستُ راضية عن عملك إلا أني أسأل الله أن يوفقك الله ويحفظك.

ابتسم لها وقبل جبينها وهو يقول:

-أشكرك، حفظك الله كذلك.

ابتسمت له، وأسرعت تقدم له الإفطار، ثم غادر ليعود لأجواء عمله.

لكن أجواء المدينة لم تتغير إلا بعد هبوب نسمات رمضان وعاصفة يوليو لتمنح الناس شيئا من الحياة.

بعد ثلاثة أشهر من الغزو، ظهر وميض الأمل يلوح من عدن ويرسل تباشيره إلى أنحاء المكلا حين تمكنت المقاومة من طرد المتمردين منها. عمت الفرحة كل القلوب المكلومة بأوجاع الفراق ومآسي النزوح، وبرقت الحياة في العيون، وأنعش الأمل المفقود بالعودة لأحضان مدينتهم، وهللوا مستبشرين بعودة الأمان والطمأنينة لها.

هذه الفرحة لم تنحصر عليهم وحدهم بل امتدت إلى كل أهل المدينة أيضاً؛ بالأمس كان الحزن يقطع نياط قلوبهم، فحاولوا بعزة النفس وكبريائها أن يقاوموه ويكتموه، لكن فرحة اليوم لا تتسع لصدورهم، تتناقل الجميع تباشيرها، علَّ هذا الحدث يكون بادرة الأمل في نفوسهم جميعاً، أما رجال العصبة فقد دفعهم ما حدث لأن يشددوا الخناق على المدينة ويراقبوا بحذر وحيطة.

ثم عقد معظم النازحين العزم على العودة إلى عدن، فكان لهم ذلك إلا بعضهم الذين لم يكن لهم مأوى هناك واعتادوا الحياة في المدينة آثروا البقاء. ومن هنا، بدأت وتيرة صعوبة الحياة بالمكلا تخف تدريجياً، وسرَّ طارق ورفاقه بما جرى لا لأجلهم؛ بل لرحيلهم عن المدينة، وتمنوا لو يلحق بهم البقية.

سر عبد الكريم بذلك واستبشر خيرا، فقال له سهيل وهو يسلم له بعض الأوراق:

-هذه أوراق تخص المستأجرين الذين غادروا وسددوا ما عليهم، وهؤلاء الذين ينوون المغادرة لكن ليس في وسعهم دفع ما عليهم.

-دعهم يرحلوا يا سهيل.

رد عليه في قلق:

-ولكن يا سيدي مديونية المؤسسة تقترب من ثلاثة ملايين، من أين سنتكفل بها؟

أجابه في حزم:

-إلى أن ينتهي هذا العام وحسب، سأفكر فيما يتوجب عليَّ فعله، دع الناس تعد لبيوتها، ليس هناك شيء أجمل من العودة لأحضان وطنهم.

-ماذا تقصد؟ إنهم في وطنهم.

-أعلم، لكن البيت هو الوطن الخاص لكل إنسان، وطن لقلبه، وهذا وطن الجميع.

ابتسم له وقال:

-فهمتك، أسأل الله أن يمنحك السعادة مثل ما منحتها لغيرك يا سيدي.

بادله ابتسامة صغيرة وهو يقول:

-أشكرك يا سهيل، قم بعملك.

وغادر سهيل المكتب، وبعد أن أنهى عمله غادر بدوره ليعود لبيته، ولما اقترب من سيارته انتبه لشخص خلفه يقول:

-ألن تيأس أبدا؟

التفت لصاحب الصوت فوجده يحيى، قال له في استغراب:

-ومم أيأس؟

رد في سخرية:

-من عملك هذا، تبادر وتخاطر لأجل من حولك.

-وهل تريد منعي؟ ألا يكفي ما فعلتموه بالمدينة خلال شهور؟ هل تريد أن تمنعني عن مساعدة الناس؟

-لا، لن أمنعك ما دمت لا تعترض طريقنا وما فعلته بك ليس لأنك اعترضت طريقنا، فنحن لا نريد أن ندخل في حلقة انتقام لا طائل منها؛ بل أردت إخافتك حتى تتوقف حين رأيت خوفك على طارق بمجرد تهديد كلامي، قلت في نفسي ماذا لو تحول لتهديد جسدي، هل كنت ستقف؟ أخذت الإذن في محاولة قتلك، ويبدو أني كنت على خطأ؛ لكن ثق بأن الندم سيكون من نصيبك في النهاية.

رد عليه في حدة:

-لن أندم أبداً وسترى.

ابتسم يحيى في سخرية، وهو يقول:

-الخاسر في هذه الحرب هو من سيندم، وكلكم خاسرون لأنكم لا تريدون الانضمام لنا ولا مؤازرتنا والوقوف معنا.

-لن ينضم إليكم إلا مغسولي الأدمغة، أتمنى ألا أراك مرة أخرى إلا في غير هذه الطريق يا ولدي..لم يقل يحيى شيئا بل غادر المكان..

وكان ذلك اللقاء هو الأخير بينهما، إلا أن احتلال العصبة وسيطرتها على المدينة ظل قابعاً، ها هو أبريل على وشك أن يقبل مرة أخرى دون أن تلوح بوادر الخلاص في الأفق، لقد نسي أهل المدينة خلال هذه المدة ما هي الحرية.

هل سيكون لها شكل يروه ذات يوم؟

*****